فلسفة الخدمة
لدى الأستاذ محمد فتح الله كولن[1]

د. أركون جابان[2]

مقدمة

من الطبيعي وقبل كل شيء؛ يجب أن أعرض ما يلي باعتبار أنه صوت الحقيقة: إن فلسفة الخدمة لدى الأستاذ فتح الله تتطلب جهود فريق، وتتبين في ظل مؤتمر متعدد الأبعاد والمجالات الرحبة. إن فهم فلسفة الخدمة لدى الأستاذ فتح الله بمختلف اتجاهاتها وفي إطار هذا البيان وعرضها إجمالاً مسألة صعبة للغاية، وأمر يتجاوز حد كاتب هذه السطور على الأخص بمراحل كبيرة ومع ذلك سوف أحاول طرح بعض العناوين المهمة لما استخلصته من رأي ووجهة نظر كونتها قدر إحاطتي وقابليتي واستعدادي الشخصي.

الهدف رضا الله

إن الهدف الوحيد في مفهوم الخدمة والحياة لدى الأستاذ فتح الله هو كسب رضا الله. في الواقع إن قول ربنا تبارك وتعالى في القرآن الكريم ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة:٧٢) هو الهدف الأسمى الذي ينبغي لجميع المؤمنين السعي للوصول إليه. فإن السعي لنيل رضا الله وكسب مرضاته لهو الهدف الحقيقي الذي ينبغي أن يكون في عمل المسلم واعتقاده. يقول الإستاذ فتح الله إن الرضا هو أعلى مرتبة عند الله، بل إن أرفع درجة فيه لتعد صفة مشتركة لأعظم الناس، فقد بذلت هذه القامات العظمى -من سيد الأنام ﷺ والأنبياء الآخرين إلى كل الأصفياء والأولياء- جهودا مضنية لبلوغ هذا الهدف المبارك بما حازوه من أقصى درجات التسليم والتفويض والتوكل والقرب والإخلاص.

---

[1] نص مترجم من التركية.

[2] رئيس تحرير مجلة الأمل الجديد - تركيا.

وبذلك أوضح الأستاذ فتح الله كولن من زوايا متعددة أن نيل رضا الله هو الهدف الوحيد في العبودية وفي كل ما يقدم من خدمات.

ومن ثم يبرز بوضوح غاية وهدف فلسفة الخدمة بقوله: "على من يقومون بخدمة الإيمان والقرآن ألا ينتظروا مقابلا قط من جراء ما يقومون به، بل يجب أن يسعوا لهدف واحد ليس إلا، وهو إعلاء كلمة الله، ولا يتعلقون بهدف قط سوى كسب الرضا الإلهي".

وطبقا له فإن الرضا الإلهي هو الهدف الأساسي فهو يرى أن ما سواه من أعمال وأفكار توصل إليه ما هي إلا أهداف إضافية. ولذا نراه يركز على مسألة نيل رضا الله، ويعتبرها قيمة كبرى وهدفا عظيما، وعلى ذلك يجب على الإنسان أن يسعى طوال حياته للفوز بهذا الهدف الأسمى.

الأنشطة التربوية

إن أهم وسيلة لدى الأستاذ فتح الله على طريق كسب رضا الله هي الأنشطة التربوية. عن طريق الأنشطة التربوية يتم تربية إنسان مثالي وكامل تحتاج إليه البشرية. إن من أهم خصائص نموذج الإنسان المثالي؛ تحقيق ازدواجية العقل-القلب. إن الإنسان هو وارث فنون العصر وعلومه، وهو القارئ الجيد للقرآن الذي ينبع من صفة الكلام، ولكتاب الكون الذي ينبع من خواص الإرادة والقوة. إن المجتمعات التي لا تمتلك هذه الخصائص؛ هي مجتمعات محكوم عليها بالانقراض طال الزمان أو قصر. وهذا هو سبب تخلف المسلمين منذ عدة عصور عن الأفق الذي فتحه لهم الإسلام، ويرتبط هذا السبب بتشوه حياتهم الروحية والقلبية، وعدم مواءمتهم للعصر الذي يعيشون فيه، والسبيل لتجاوز ذلك هو الإنسان الذي يمتلك الخصائص المذكورة؛ الإنسان الذي يتحرك بروح الصحابة.

وفيما يلي صورة للإنسان الذي تحتاجه البشرية: يوصى (الأستاذ فتح الله) بتنشئة الإنسان بهذه الصفات التي يرسمها بكلماته "إن أطباء المعنى والروح قلوبهم منفتحة

على مجال الفيوضات والواردات والإدراك والفكر وكل العلوم؛ من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة ومن الرياضيات إلى الأخلاق ومن الفنون الجميلة إلى التصوف ومن الكيمياء إلى الروحانيات ومن الحقوق إلى الفقه ومن السياسة إلى السير والسلوك". إن الذين ينشأون بهذا الشكل ويحصلون على تعليم محدد؛ يفتحون قلوبهم للجميع حتى المتجولين في الشارع، ويكبرون في المستقبل وهم يملكون عبقرية وبراعة وعلمًا، ويحققون الفائدة للمجتمع. إن المدارس (ومساكن الطلاب) والجامعات ودور العبادة والمؤسسات التعليمية تخلص الإنسان من قصوره البشري، وتعده بكمال إنساني حقيقي.

كما يوصي بتنشئة نموذج إنساني راقٍ في تمثله للقيم الإنسانية العالمية والإيمانية، ومتكامل مع العالم، ومطلع على القواعد التشريعية والأوامر التكوينية، ومجيد لقراءة عصره الذي يعيش فيه.

وفي الواقع هناك العديد من رجال الأعمال الذين يهتمون بوصايا الأستاذ فتح الله هذه، ويفتتحون مؤسسات تعليمية في أماكن عديدة من العالم، وهناك كثير من الناس الذين هاجروا لتقديم علمهم وروحهم في هذه المدارس المفتوحة.

بناء جسور الأخوة

يرى الأستاذ فتح الله أن كل مخلوق وكل إنسان هو أثر إلهي مستقل بذاته. وكمؤمن ينظر دائمًا للكائنات بعين "مهد الأخوة" ويبحث عن سبيل لبناء علاقة مع كل مخلوق من المهم للغاية -وبصفة خاصة- أن تتعامل بأسلوب لين تجاه المؤمنين وتجاه أصدقائك وتتوسع في علاقتك معهم. إن بناء جسور الأخوة بين المسلمين من جديد بالتمثل بأخوة الصحابة الذين يمثلون قمة عصر السعادة هو النقطة الحياتية التي أوصى بها الأستاذ فتح الله جميع المسلمين بكل صدق، وارتجاها من الله تعالى في كل دعاء قولي أو عملي له. وذكر أنه ليس جديرًا بمن يتحلى بصفة الإيمان أن يتخلى عن الدعاء للمسلمين المضطهدين والمظلومين في كل بقاع العالم.

كما يرى الأستاذ فتح الله أنه لا تكفي الأخوة الحسية فقط عند بناء أخوة هكذا بين

المسلمين. فضلاً عن أن الأخوة في النسب -وهي أقوى أخوة حسية- من الممكن أن تصل إلى حد التقاتل والشجار (بين الأخوة بعضهم البعض بسبب مسألة إرث بسيطة للغاية. وهذا يعني أن الأخوة الحسية لا تكفي بمفردها، ويجب العمل على بناء هذه الأخوة الحسية مع الأخوة المنطقية. وفيما يلي أسس ومبادئ الأخوة المنطقية كما عبر عنها بديع الزمان سعيد النورسي: خالقنا جميعا واحد، مالكنا واحد، معبودنا واحد، رازقنا واحد... وكذلك نبينا واحد، ديننا واحد، قبلتنا واحدة....، ويمكن أن تصل هذه القواسم المشتركة حتى مائة. مثال ذلك تقاسم المصير نفسه كالظلم والاضطهاد المنتشرين في وقتنا الحالي، وكل تلك الأمور تعد فعاليات ونشاطات مؤثرة للغاية، سواءً في تقوية أو بناء الأخوة الضرورية بين المسلمين، ولا بد أن تدخل في حيز التنفيذ.

كما يؤكد على مدى أهمية الأخوة بين المسلمين استجلابا لرحمة الله وطلبًا لمغفرته بهذه الكلمات: "من ناحية أخرى فإن توفيق (الحق ﷻ) لنا مرتبط ارتباطًا وثيقًا بوفاقنا؛ لأن الوفاق وسيلة مهمة جدًا للتوفيق الإلهي". كما يوضح الأهمية القصوى للأخوة بين المسلمين لأنها السبيل للحصول على رحمة الله وكرمه وبالتالي يتفاهم المسلمون ويتفقون فيما بينهم، وتكتسب طبائعهم عمقًا وبعدًا مختلفين وإنني أرى أن عملاً هكذا ليعد بمثابة مناجاة ودعاء معنوي له من التأثير ما يفوق رفع اليدين وختم مجموعة الأحزاب مرة أو مرتين في اليوم.

والآن يسعى العديد من الناس ممن يولون أهمية لوصايا وأفكار الأستاذ فتح الله ويعتنقونها إلى القيام بجهود وفعاليات متعددة من أجل إحياء الأخوة بين المسلمين على كافة الأصعدة الثقافية والتجارية والتعليمية وغيرها.

الابتعاد عن الأنانية والمصلحة

الأنانية وحب الذات أحد النقاط الأكثر حساسية في فلسفة الخدمة والحياة لدى الأستاذ فتح الله. (ولذا نرى الأستاذ كولن يقسم الأنانية إلى قسمين: أنانية فردية وأنانية جماعية، ولطالما ذكر أن كليهما مهلك. وقد رسخ الأستاذ فتح الله مبدأ إعلاء الشعور بـ"نحن" على إذكاء الشعور بـ"أنا" وجعله في المقدمة مهما يكن، وكذلك يؤكد على عملية

الوصول إلى "هو"، وإلا فسيستحيل التعلق بـ"نحن" إلى أنانية جماعية تنذر بالخطر. "نعم"، يجب تجاوز الإحساس بحب الذات وجعل الشعور بـ"نحن" في المقدمة؛ ولكن في تلك النقطة يجب ألا تكون قلوبهم وعقولهم أسرى لفكر التعلق، إذا كان فضل الله يرتبط بوسيلة تدخل ضمن دائرة الأسباب فلا بد أن نعتقد أن هذه الوسيلة هي الوفاق والاتفاق كما أوصانا بقوله: ولا يليق بالأفراد الذين يشكلون مجتمعًا ما أن يقولوا: "نحن فعلنا، نحن أسسنا، نحن نظمنا، نحن انتصرنا"، وإنما عليهم بدلاً من ذلك أن يتوجهوا بالشكر إلى الله، ويتحدثوا بنعمته عليهم قائلين: "إن توفيق ربنا ﷻ يرتبط بوفاقنا واتفاقنا فيما بيننا، فله الحمد والثناء الجميل، فهو من ربط قلوبنا ببعضها، وحببنا في بعضنا، وجمع شملنا، وجعلنا خداما في هذه الحركة المباركة. يجب على المرء كمؤمن أن يشير دائمًا إليه ﷻ ويظهر المكان الصحيح الذي يتأتى منه الفضل والكرم الإلهي، وذلك بأن يقول: "لله الحمد والشكر" آلاف المرات حيث إنه كرَّمنا وهيَّأ لنا مناخ الخدمة بتوفيق من عنده، كلَّل سعينا وجهودنا بالنجاح".

حركة فكرية ذات أسبقية في الحركية وتفعيل الأفكار

إن إنجاز العمل والفكر في أساس فلسفة الخدمة لدى (الأستاذ فتح الله)؛ تعتمد على وجوده داخل الفرد. فمن ناحية يتحرك لدعم الفكر والعمل، ومن ناحية أخرى يشكل أرضية لمشروعات الأفكار الجديدة.

أما حتمية وجود العمل والفكر داخل الفرد؛ فيضع لها الأستاذ فتح الله الأسس كما يلي: "إن التصرف بدون فكر أو تخطيط يتسبب في (البلبلة) واقتراف الأخطاء عدة مرات، إن الأفكار الجامدة تشكل نموذجًا ضعيفًا للغاية للأفكار والآراء، وتكسر روح الإرادة".

(إن تفعيل الأفكار له قصب السبق عند اقتران الفكر بالحركية. وقد أكد الأستاذ فتح الله على أن الحياة الحقيقية ترتبط بالفكر والحركية. في قوله: إن أهم حدث في حياتنا هو الحركية).

ويقول الأستاذ فتح الله: "إن أهم حدث في حياتنا هو العمل". ويلفت الانتباه إلى

أن الوجود في حالة عمل مستمر يجعلنا في حالة من النشاط الدائم مما يساعدنا على مقاومة جزء من المشاكل، وتحمل جزء من المسئوليات. إن بقاءنا في سكون وفي حالة من الخمول إزاء ما يجري دون تفعيل قيمنا في الحياة؛ يجعلنا ننصهر كقطعة ثلج سقطت في الماء. ويعرف الأستاذ فتح الله الحركية الإسلامية كما يلي: "التمسك بذاتيتنا، وتواؤم رغباتنا مع رغبات ومطالب العالم، ثم إيجاد تيار حركي لأنفسنا داخل الحياة العامة، وأن نسبح في تيارنا بشخصيتنا المستقلة داخل التيارات العامة في الكون، أي أننا من ناحية نتكامل ونندمج مع كل الكائنات؛ ومن ناحية أخرى نحافظ على معالمنا الأساسية".

يجذب الأستاذ فتح الله الانتباه إلى أن أهم سبب لتخلف المسلمين -الذين ينتسبون لأكمل دين- عن العصر الذي يعيشون فيه هو اعتلال إيمانهم، ولذا فلا بد من بحثهم عن القصور فيه. وذكر أنه من المتعذر التعايش بالإسلام دون أن تكون حياتهم الروحية والقلبية عميقة كحياة الصحابة، أو أن يكون لديهم حرص على الحياة، أو أن يتعرضوا لضغوط الحياة.

شرعية الوسائل للوصول للهدف

يؤكد الأستاذ فتح الله على ضرورة شرعية السبل والوسائل التي تتخذ لبلوغ هدف مشروع وعادل، وذلك في الخدمات المقدمة في سبيل نيل وكسب رضا الله. "يجب أن تكون السبل مشروعة وعادلة للوصول لهدف شرعي". نعم أجل، إن مشروعية الغاية والأهداف بالنسبة للمنتمين للإسلام حق، وعليه يجب أن تكون الوسائل الموصلة إلى تلك الأهداف والغايات حق كذلك. كما لا يتأتى رضا الله والوصال معه دون صدق وإخلاص، فكذلك لا تتحق خدمة الإسلام، وتوجيه المسلمين إلى أهدافهم الحقيقية بالسبل الشيطانية البتة. حتى إنه أحيانًا إذا كانت رؤية البعض عكس هذا، فإنهم يستهلكون احترامهم في طرق الباطل. إن الأشخاص الذين فقدوا عطف وكرم الخالق؛ بالقطع لا يعتقد أبدا أنهم قد نجحوا فترة طويلة، يقول مثلاً: لا يمكن أن يكون الإرهاب وسيلة أبدًا لتحقيق أي غاية إسلامية، ومن يودون الوصول إلى أهدافهم المشروعة

بطرق غير مشروعة. إن من يريدون تحقيق هدف مشروع بطرق غير مشروعة؛ سيتلقون صفعة قوية عكس أهدافهم.

الابتعاد عن السياسة

يعبر الأستاذ فتح الله عن وجهة نظره في السياسة فيقول: من زاوية النظر للسياسة؛ يعبر الأستاذ فتح الله: "إن السياسة في الأصل هي فن إداري متعدد الرؤى والاتجاهات مثل التفكير بالتساوي في اليوم مع الغد، والغد مع اليوم الذي يليه، ومراعاة مرضاة الله مع إرضاء الناس ولكن في وقتنا الحالي تفهم السياسة على أنها فقط عبارة عن أحزاب وانتخابات وصراع السلطة والدعايات. إن الحكم الذي يتم الحصول عليه بالقوة والشهرة والثروة؛ هو حكم زائل، وحكم الحق والعدل هو الباقي. لذلك فإن أكبر سياسة يجب أن تتحيز للحق والعدالة. ولكن هيهات عندما ننظر للعديد من دول العالم لا نستطيع أن نبعد أنفسنا عن التفكير هكذا. أين السياسة التي تتكامل مع فكرة الحق والعدل، أين دجل الشوارع الذي يكون معظمه عبارة عن تزوير وكذب. مع الأسف فإن قسمًا كبيرًا من الناس في الوقت الحالي يفهمون السياسة على أنها إظهار غير المشروع على أنه مشروع في صراع المنفعة والسلطة والإضلال والخداع في ألعابهم السياسية اليومية. وبسبب هذا الفهم والتفسير الخاطئ؛ وقفت بعيدا عن كل الحركات السياسية من أجل علاقتي مع الله، واستقامة أفكاري وحياتي القلبية، وبعد هذا أرى أنه من الضروري أن أظل بعيدًا".

لذلك يجب أن يستفيد رجال الخدمة من الأستاذ فتح الله وآرائه، وأن تقتصر علاقتهم بالسياسة على وقت الانتخابات، وأن يختار الجميع بإرادتهم الحرة، ثم يستمرون في طريقهم.

ملاءمة الفكر لروح العصر

من المهم جدًا أن تكون الخدمات المقدمة معقولة، ومن ناحية أخرى يجب الأخذ بالتفسيرات العصرية، والتماشي مع روح العصر عند حماية الجوهر، وهذا يعني إدراك

الفرد للبعد المعنوي للعصر الذي يعيش فيه مع إشباع الروح المعنوية. إن من أهم أسباب تخلف أفكار ومعتقدات المسلمين منذ عصور هو عدم تمكنهم من إدراك روح العصر الذي يعيشون فيه جيدًا.

ويؤكد الأستاذ فتح الله في عديد من المواقف بأن المضي قدمًا للمستقبل بهدف كهذا؛ أمر صعب وشاق، ولكن يجب القيام به؛ لأن ذلك مهم للحياة. أما من تبنوا أفكار الأستاذ فتح الله وعقلوها فقد قاموا بفتح كثير من المؤسسات التعليمية في كل أنحاء العالم وعلى الأخص في تركيا، وربطوا النشء في هذه المدارس بالقيم الجوهرية والأخلاقية والإيمانية، وانفتحوا على العالم، وفهموا العصر الذي يعيشون فيه جيدًا، واخذوا بتفسيرات العصر، واستخدموا التكنولوجيا والفنون الحديثة والوسائل التعليمية المتطورة. وما لبث أن انتشر النظام التعليمي المقدم في تلك المدارس التي أنشأها المتطوعون بمرور الوقت، واعترفت به عديد من المؤسسات التعليمية في العالم، واعتمدوه نظامًا تعليميًا نموذجيًا.

نهج الصحابة وخصائصه

يمثل الأستاذ فتح الله بالصحابة دائمًا في حديثه، ويعتبر أن الصحابة هم المقياس في معايشة الإسلام وتبليغه وإرساء مبادئه، لذا نراه يقول: إنني أصدر أحكامي وفقًا لنسبة التشبه بهم.

وذلك لأنه معجب بحياة هؤلاء الصحابة وبإيمانهم وحركيتهم، ومعيشتهم من أجل الآخرين. ثم يلفت الانتباه إلى احتياج الناس في وقتنا الحاضر إلى وجود أفراد يعيشون مثل هؤلاء الصحابة في وقتنا الراهن أكثر من أي عهد مضى، مع ملاحظة أنه يجب أن نحدث أنفسنا بقولنا: لماذا لا نكون مثل هؤلاء. إن من أهم سمات نهج الصحابة -والتي طالما ركز عليها الأستاذ فتح الله في كل مناسبة- هي أن يمزج المسلم حياته بخدمة الإيمان وصحبة الله، وأن يستهدف رضا الله على اعتبار أن هذا الأمر هو الغاية الوحيدة في حياته، وأن يبذل كل الجهود في سبيل ذلك وهو يقول: دنيا جديرة بالعيش فيها إذا ما كانت بها الخدمة، ويوضح أن الهدف الوحيد للحياة هو رضا الله.

خصائص نهج الصحابة

كان الصحابة يرجعون كل أمورهم إلى القرآن والسنة وقواعد الدين، ويعلقون حياتهم على فهم الأمر الإلهي، وكسب الرضا الإلهي والعمل بما يتوافق معه، وإحياء القيم التي يؤمنون بها، حتى إنهم كانوا يلهجون بذكر صحبة الله في كل مجلس يقومون فيه أو يقعدون.

وهناك خاصية أخرى لنهج الصحابة، وهي إتباع سنة رسولنا الكريم ﷺ، والتحرك في ضوء كلامه وفعله وسلوكه ومواقفه. ولقد اجتهد الصحابة للتشبه برسولنا الكريم في كل سلوكه ومواقفه، ويتعقبون خطاه.

من أهم أسس نهج الصحابة هو تأدية العبادات والخدمات دون انتظار مقابل دنيوي أو أخروي. عبوديتهم وعبادتهم من أجل رضا الله فقط. ولا يتطلعون إلى الأمور الخارقة للعادة كالتجلي والكشف والكرامات، ولكن يفضلون العبودية الحقة على كل شيء أمامهم. (إنهم يرون أن الكرامة الحقة هي التمثل بأخلاق القرآن بشكل مستمر وكامل بغير انقطاع، والسير على الاستقامة التي تفضي إلى رضا الله. اقتفى الصحابة بعض السلوكيات في حياتهم مثل: العيش بشكل يلائم روح الدين، والتشبع بالأخلاق الحسنة والمعرفة والإخلاص والإحسان، ومراعاة حقوق الله وحقوق الناس.

إن الصحابة يعطون الأولوية للغة القلب، وشرح القيم التي يؤمنون بها، والتبليغ الذي يبرز فيه العمل ويؤكده الحال والسلوك).

لفت الأستاذ فتح الله الانتباه إلى أن الصحابة قد اجتهدوا وعملوا في سبيل خدمة الإيمان والقرآن، لم يتوانوا أو يتوقفوا، بل كانت تسبقهم حركية العمل في دأبهم وسعيهم. نذروا أنفسهم لخدمة الإنسانية والقرآن والإيمان، وإيجاد السبل لإبلاغ الآخرين. نعمة التمسك بالإيمان والعمل بمقتضاه في الحياة، فهم من جعلتهم معجزة القرآن جيلاً ذهبيًا، حيث كان تجدد الوحي وحسن الصحبة من الأسباب التي بعثتهم من جديد، وبفضل الرسالة الإلهية ارتقوا، وحظوا بأعظم نعمة وهي الإيمان.

كما لفت الأستاذ فتح الله الانتباه إلى أن الصحابة قد هاجروا، وطوفوا بالديار يحملون هذه الروح وهذا الحماس الذي حصل لهم بسبب الإيمان، ولذا يعتبرون أن التخلف حتى عن المكان الذي هاجروا إليه يعد خيانة.

إن الشيء الذي نشعر باحتياجنا الكبير له في وقتنا الحاضر هو فلسفة الخدمة هذه التي تعد ذات أولوية في حركة الصحابة، في الواقع أن العاطفة والعشق هو أحد الأشياء التي نحتاجها بشدة اليوم. وفي ظل عاطفة الإسلام هذه التي ترتكز على قواعد الخدمة والمصاحبة؛ يجب على الجميع أن يتحمل المسئوليات بشكل جاد، ويمتلئ (ويتشبع) بالإحساس بالمسئولية. ويجب أن يعرفوا أن هدف الحياة هو خدمة الإيمان والقرآن والدين والأمة والبشرية كلها، فيجب على كل فرد أن يكون مخلصا للغاية في هذا الأمر. ويجب أن يستطيع قول ما يلي "يا إلهي إن هدف خلقي هو عبوديتك بحق. إن العمل المنوط بي في هذا الطريق هو وجودي ضمن المجموعة التي تعرف بك، وإعلان العالم كله باسمك العظيم. وأن آخذ على عاتقي تلك المسئولية الكبيرة. فإذا لم أتشبث بقيمة عمل مقدس هكذا؛ فما معنى حياتي؟! يا إلهي إما أن تفتح لي سبل خدمة الدين والأمة والإنسانية؛ أو تقبض روحي هذه، فلا تتركني هنا عبثا" إن الكاهل ينوء كل يوم بتحمل المسئولية الجدية، فيجب الاجتهاد كثيرًا لحل أي مشكلة، وتقديم العمل الصالح باستمرار، وعدم ترك أي فراغ، وإلا سيدفع الشيطان الكسالى والمتعطلين إلى اتجاهات أخرى. وستطل برأسها رغبات عديدة كالراحة وحب المال والجاه. ويظهر مرض عشق البيوت، والانزواء فيها... فيجب ألا ينسوا، حيث إن الشخص المنزوي على نفسه مع الوقت يتحول إلى شخص كسول؛ فيطفئ الله شعلة النشاط والحيوية وعاطفة الخدمة التي ألقاها داخله. وحينذاك تتأزم الروح، وتضعف بشكل لا مثيل له.

إن أهم سمة في نهج الصحابة هي عدم انتظار أي مقابل مادي أو معنوي من الناس نظير الخدمات المقدمة فالهدف هو مرضاة الله فقط.

روح التفاني

روح التفاني هي أهم عامل في فلسفة الخدمة، وأهم أساس فيها، فضلاً عن أنها

شريان الروح. التكامل بالقيم الأخلاقية، والانفتاح على الحياة الروحية والقلبية هو الحل الأساسي لكل مشكلات الإنسانية الحالية والتي تتضافر مع الأزمات الثقافية والسياسية والاقتصادية المختلفة، ويجب انفتاحها على الحياة الروحية والقلبية. "وهكذا من الممكن حدوث انبعاثة حيوية تحت راية الربانيين الذين لا يفكرون في أنفسهم أبدًا وإن فكروا فإنهم يرون خلاصهم في خلاص الآخرين".

يؤكد الأستاذ فتح الله على أن الإنسانية اليوم بحاجة ماسة إلى من يمزجون حياتهم بروح التفاني، فيقول: "نعم، إننا في حاجة إلى أناس روحانيين يتباكون لذنوب الأمة، وينتظرون غفران ذنوبهم مع غفران ذنوب جميع الإنسانية يقفون عند الأعراف، ويعيشون متمتعين بجناتهم، ولا يستطيعون -حتى إذا دخلوا الجنة- أن يجدوا الوقت للتمتع بملذاتهم الشخصية؛ يحتاجون الصدق والإخلاص أكثر من أي شيء".

إن سعادة وهناء أجيال الغد؛ هي نتاج أرواح وأنفاس فدائيى اليوم. إنه لمن الخيال أن ينتظر من باعوا أنفسهم للراحة والدعة اليوم مستقبلاً منتظمًا ومشرقًا ينبعث من تحت ركام الفتور. إن المستقبل ينمو ويترعرع في رحم الحاضر، وسيصل إلى قوامه واتساقه بالرضاعة من أثداء الحاضر ومثلما نقل وجودنا اليوم آثار الأمس بجوانبه السيئة والجيدة؛ فإن الغد سيكون نسخة اليوم الاجتماعية التي تبتعد عن الفردية، ومتوسعة ومتطورة.

يتمسك الأستاذ فتح الله بشدة بإطار روح التفاني، ويوضح أن حقيقة المؤمنين مرتبطة ارتباطا وثيقا بالروح الأبدية، وأن سبيل الشعور بذلك يرتبط بالإعراض عن المنصب والجاه والإمكانيات الدنيوية والسعادة الفردية بل حتى عن أحاسيس الفيوضات المعنوية. أما ما وعدوا به من التفاني من أجل الإنسانية الموعودة، فيوضحه كما يلي: "إذا استطاعوا تحقيق هذه الصلة والعلاقة؛ فإن عالم الغد سيكون العالم الذي تتوج فيه الرؤوس بالحق، وتحترم فيه الحقيقة، ويعاب فيه على فكرة القوة، ومفهوم المصلحة".

إن الذين يتبنون فكرة الخدمة لدى الأستاذ فتح الله التي تحتضن كل الإنسانية بحب، وتستقي هدفها من عالمية الإسلام؛ يقدمون الخدمة -وقد نذروا أرواحهم لذلك- في

كل مكان في العالم وعلى رأسهم تركيا كمتطوعي تعليم مع العاملين ورجال الأعمال والطلبة والمعلمين والشباب والشيوخ والسيدات والرجال.

تقدم الخدمات في معظم الأماكن بروح التضحية، وذلك في المدارس التي افتتحها رجال الأعمال الذين وهبوا قلوبهم للخدمة. وهناك من يقدمون الخدمات ويشاركون بكل أنواع التضحية في سخونة صحاري أفريقيا التي تزيد درجة حرارتها على خمسين درجة، وفى برودة سيبريا التي تقل درجة حرارتها عن خمسين درجة تحت الصفر، ومنهم من لقي حتفه وهو يحاول إنقاذ طالب سقط في البحيرة وكاد أن يغرق، ومنهم من عاشوا على الخضروات التي زرعوها أمام بيوتهم حتى لا يفسحوا المجال لانقطاع الخدمة رغم أنهم لم يتحصلوا لشهور على رواتبهم التي يتقاضونها بسبب المنحة.

حركة نماذجها من نفسها

حركة نماذجها من نفسها تعني أن نموذج الخدمة الذي قدمته حركة المتطوعين بالاستفادة من فكر وفلسفة الخدمة لدى الأستاذ فتح الله؛ لا يرتبط بأي طريقة أو حزب بل استفاد من الأفكار المتعددة، وتأسى بالصحابة، وأن تخرج كل خدمة نموذجها من نفسها.

إن فلسفة الخدمة عند (الأستاذ فتح الله) إنما هي حركة تأسست على الإرشاد وتهدف إلى رضا الله، متخذة من عهد الصحابة نموذجًا، ومستفيدة من تفسيرات أصحاب العلم والفكر الذين يمثلون حياة الروح وظلوا في المقدمة من الأمس إلى اليوم وهم يسيرون على هدي القرآن والسنة، من أمثال الإمام الغزالي والإمام الرباني وبديع الزمان سعيد النورسي وحسن البنا. إن هذه الخدمة تهتم بظروف العصر عن طريق الاستفادة من أفكار أشخاص عظام سبق الحديث عنهم، وتفسير الدين في إطار مناسب لنظم وأسس القرآن والسنة. ويعد الأستاذ فتح الله صاحب فكر متقدم وعملي، وله كتب مطبوعة يتجاوز عددها الـ ٦٠، بخلاف الآلاف من الآثار الشفهية التي تتمثل في المحادثات والمؤتمرات والأسئلة والأجوبة والوعظ.

يرى الأستاذ فتح الله أن المؤمن يهدف من وراء أي أمر أو خدمة الوصول إلى رضا الله، وإن كل الأهداف الإضافية تستحيل إلى عدة وسائل إزاء هذا الهدف الحقيقي.

إن فكر الخدمة الذي يتضافر مع آرائه وأفكاره، يأخذ -أولاً- النموذج من إنسان الأناضول، وينشيء المؤسسات التعليمية الموائمة لظروف العصر. ومع الوقت انتشر هذا النموذج في شتى أرجاء العالم، وتمت محاكاته في الأماكن الأخرى؛ حتى صار نموذجًا لكل الإنسانية.

إن حركة المتطوعين التي تسترشد بنهج الصحابة تخرج نموذجها من داخلها على كافة المستويات، يدخل في هذا الإطار الرجل والمرأة، والشاب والمسن، ورجل الأعمال والعامل. هذا النموذج موجود في داخل كل المستويات. فمثلاً كما وجد المعلم معلمين غيره أمثال مصعب بن عمير ﷺ قد رحلوا إلى كل مكان بالعالم وأوقفوا أنفسهم على الخدمة في المؤسسات التعليمية فسيجد كذلك رجل الأعمال رجال أعمال آخرين يطربون بالتضحية والكرم، ويعملون على فتح المؤسسات التعليمية أو تعزيز فتحها خدمةً للقيم الإيمانية والإنسانية. على رجل الأعمال المتحمس بفكر التضحية والكرم أن يفتح مؤسسات تعليمية في أماكن متعددة لخدمة الإيمان والقيم الإنسانية، أو يدعم المؤسسات الموجودة بالفعل، كما يوجد العديد من معلمين كمثل مصعب بن عمير تمامًا يتوجهون إلى كل مكان في العالم وينذرون أنفسهم لتقديم الخدمة في المؤسسات التعليمية.

ولذلك تعد هذه الحركة حركة نماذجها من داخلها بسبب حركيتها وأفكارها ومصادرها الخدمية، مع اقتران كل ذلك بفضل الله وكرمه وعنايته ولذلك فإن النماذج تتحرك من الداخل باعتبار أن منابع الخدمة والعمل والفكر تظهر بتجلٍّ وعناية وكرم من الله ﷻ.